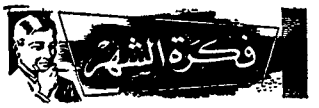

فكرة الشهر

حاجتنا الى المنهجية

في جامعات أوروبا طائفة كبيرة من الشباب العرب، من خريجي معاهد مصر والعراق وسورية ولبنان وكلياتها، جاءوا الى الغرب ليكمّلوا تحصيلهم العالي في دراسة الأدب العربي والحضارة الاسلامية، وما يكاد هؤلاء الطلبة يبدأون احتكاكهم بالأساتذة المستشرقين حتى يحسوا إحساساً قوياً بثغرة بيّنة في تكوينهم الفكري وثقافتهم التي جاءوا بها من بلادهم، وهم ليسوا بحاجة إلى إطالة التفكير في تشخيص هذا النقص، فأعراضه الاولى منبئة عنه، وهو فقرهم إلى المنهجية التي يتسلح بها الباحثون الغربيون في دراستهم للأدب العربي، وموضوع مقالتي هذه محاولة سريعة لتحليل هذا الفقر ودراسة طبيعته والتماس أدوية له.

في أكثر جامعاتنا العربية ثبتت تقاليد مدرستين في الدراسة، وما زالت كل واحدة تجد لها أنصارها بين الاساتذة الجامعيين: أولاهما مدرسة قديمة تقوم في دراسة التاريخ الادبي على ما سنه ابن قتيبة وابن خلّكان وغيرهما من كتّاب التراجم، وتعتمد في دراسة النصوص ونقدها طريقة المبرّد في كتاب «الكامل» من العناية بعلوم الآلة من لغة ونحو وصرف وعروض وبلاغة. وثانيتهما مدرسة تحاول أن تبدو حديثة بما تستعير من أساليب الغرب وبما تنقل الى العربية من أبحاث المستشرقين، ولهذه المدرسة لونان: لاتيني فرنسي، وسكسوني انجليزي، ومرد كل لون إلى ثقافة المدرس الجامعي ومعينها.

منذ أكثر من عشرين عاماً كان الصراع عنيفاً بين هاتين المدرستين، وقد تجاوز ميدانه محيط الجامعة المصرية القديمة وأصبح معركة أدبية خصبة أبلى فيها أنصار كل طرف أحسن البلاء، وكان نصيب الفكر العربي من كل ذلك قفزة عريضة نحو التنبّه والوعي، ولكن ما تكاد السنون تمرّ، ويختفي الصف الأول من الجبهتين، يتخطّف الموتُ بعضهم ويميت الخمول بعضهم الآخرَ ويبعد من بقي حياً منهم نفسه عن النيران بعد ان كسب لها الشهرة والمجد.. أقول ما تكاد السنون تمر، ويتقدم الصف الثاني من كل طرف بعد اختفاء الصف الاول حتى ننظر فنرى انفساً خوّارة وأسلحة مغلولة واستعداداً طيّباً للسلام، والسلام أمنية غالية إلاّ في الأدب، فهو موت العزيمة المبدعة وقتل الروح المناضلة الخالقة.. ومن الموت دون ريب أن تمدّ المدرسة القديمة يدها إلى ما يَبْهَرها عند جارتها من ألوان الكلام على العاطفة والخيال والموسيقى والفكرة والأسلوب، تخلطه بما عندها من نحو وغريب وبيان وبديع خلطاً رديئاً يكون أهون نتائجه الخلوصَ إلى مزيج غريب متنافر من أشتات المعلومات والأحكام التي لا ترتكز على اساس قويم، وفي ثوب من لغة جوفاء ومفردات مرّصعة مختارة.. ومن الموت دون ريب أيضاً أن تحرص المدرسة الحديثة على الاّ تثير «الفتنة الادبية» وان تخشى ثورة المحافظين ونقمتهم عليها، فتكتفي بقول ما لا يثيرهم، وتخفي كثيراً ممّا تؤدي إليه الدراسة العلمية لانها لا تجد الشجاعة الادبية الكافية لاذاعته والجهر به، ولهذا بدت المدرسة الحديثة عاجزة عن ان تبصر تلامذتها بالطريقة القويمة في الدراسة العلمية او هي تخاف ان تفعل ذلك إذ كانت قادرة عليه، لانه سبيل شائكة مهلكة..

بين هذا الركود والموت، وفي ظل هذا السلم الفقير بين هاتين المدرستين، يتم اليوم تكوين طالب الآداب الجامعي في جامعات البلاد العربية؛ تكوين هزيل دون ريب وتوجيه خاطىء إذ خسر محاسن المدرسة القديمة الاصيلة التي تنمي الذوق العربي وتبصره بمحاسن البيان ووجوهه، وإلى خسارته هذه لم يستطع ان يمتلك اصول المنهجية الغربية واساليب الدراسات الحديثة القويمة.

يجب ان اعترف بأن من الصعب على خريج الجامعات العربية، ما لم يتح له ان يجتاز حدود بلاده إلى الغرب وجامعاته، ان يحس إحساساً أكيداً بذلك النقص الخطر في تكوينه الفكري وثقافته، فأنا لا ازال اذكر حيرتي وثورة نفسي عندما حضرت اول درس لاحد المستشرقين من أساتذتي، لقد سمعت اذ ذاك أشياء استنكرتها وارتعدت لها لانها صدمت حقائق — أو ما كان يبدو لي حقائق ثابتة — لا يصل اليها الباطل، وحاولت أن أناقش وأجادل، ولكنني أدركت والالم يعصر نفسي أن من الخير لي أن أفكر كثيراً فيما سمعت ووعيت، وكان أن عرفت أخيراً ان الطريقة القويمة يجب أن تبدأ من هنا.. وبهذا لمست مدى حاجتنا الى الطريقة التي يعالج بها أستاذي تلك الامور وشدة فقرنا الى منهجيته.

هذا العرض التحليلي السريع لفقرنا إلى المنهجية في دراسة الادب العربي في جامعاتنا، يكشف بصورة واضحة عن طبيعة هذا الفقر وأسبابه، ويكاد يشير اشارة صريحة إلى الدواء الذي نحن في حاجة اليه.

إننا اليوم في حاجة إلى أن تثور الفتنة الادبية بين المدرستين القديمة والحديثة من جديد، فيلتزم أنصار المدرسة الاولى حدود طريقهم ويتمسكوا بها، ويجهر أنصار المدرسة الحديثة بكل ما تؤدي اليه أبحاثهم ويعتقدون أنه الحق دون خوف المحنة والاذى.

حلب

صالح الاشتر